هل من حدود للطيبة البشرية؟†

الأستاذ يوحنا كرافيذوبولوس*

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إذا كنت في عجلة للذهاب إلى العمل أو إلى مكتبك أو أشغالك، يكون أمراً صحيحاً ومناسباً أن تتوقف على الطريق لتساعد شخصاً محتاجاً، حتى لو كنت تخاطر بأن تتأخّر، أو تخسر شيئاً أو حتى تقع في مشكلة. التنظيم ووتيرة الحياة والجدول الزمني ومجموعة الالتزامات المتنوعة غالبًا ما تتداخل مع مشاعر المحبة وتجعل تنفيذها صعباً علينا. نتحدث عن المحبة باعتبارها المقوِّم الأساسي للمسيحية، لكننا ننسى أنها، أو بالأحرى يجب أن تكون، أهمّ سمة في حياتنا المسيحية. لذلك، فيما نحن غالبًا نفشل في إظهار المحبة للذين يحتاجون إليها، إلا أننا دائمًا ما يكون عندنا عذر جاهز نقدمه عن أنفسنا.

يذكّرنا مثل السامري الصالح ببعض الحقائق المؤلمة ويعطينا صورةً عن المحبة العملية. على عكس ما قد يتوقعه المرء، بينما هما في طريقهما من القدس إلى أريحا، 'يمرّ' الكاهن واللاوي بجانب الجريح نصف القتيل الذي سقط بين اللصوص. لماذا تفترضون أنهما لم يتوقفا؟ ربما كانا يخشيان أن يعانيا نفس المصير إذا أخّرا رحلتهما. من الحقائق التي نلاحظها جيدًا أن الخوف من الإصابة الشخصية والحاجة إلى الحماية الذاتية يتداخلان حتماً مع عمل المحبة. ربما كانا في عجلة من أمرهما للوفاء بالتزاماتهما، للقيام ببعض المهام الكتابية، بعض المهمات. غالبًا ما تكون الأعذار الصالحة والمبررة عقبةً تمنعنا من مساعدة شخص في حاجة ماسة. ربما اعتقدا أن الرجل قد مات بالفعل وأرادا تجنّب الاتصال به، وبالتالي مراعاة شريعة موسى ذات الصلة. في كثير من الأحيان، يحل الشكل محلّ الجوهر ويخمد الاستجابة التلقائية. أو ربما كانا ببساطة غير مباليَين، دون سبب وجيه. لدينا الكثير من الأمثلة اللاإنسانية في الزمان الحاضر لمثل هذه اللامبالاة السامة.

لا يقدّم المثل أي تفسير لسلوك الرجلين. إنه مهتم أكثر بموقف الشخص الثالث في السرد أي السامري، الذي كان بالنسبة لليهود نجسًا ومهرطقًا ويجب رفضه. لا ينبغي أن نعتقد أن المسيح أراد أن يظهر الفرق بين رجال الدين غير المكترثين في أيامه والناس العاديين المتعاطفين. هدفه كان شيئًا آخراً: إظهار أن اليهود على الرغم من أنهم يتلون في صلواتهم اليومية وصيتَي العهد القديم الأساسيتين ("أحبب الرب إلهك" و "أحبّ قريبك كنفسك")، إلا أنه في الممارسة لم يكن لديهم أي ميل إلى تطبيقها، فيما الأجنبي أعطى مثالاً على الشعور الديني الحقيقي، الذي يتمحور حول فعل المحبة. من الجيد أن ننظر إلى بعض جوانب هذه المحبة المدهشة.

١. المحبة هي لقاء شخصي مع شخص يعاني، فقير أو غير سعيد. قد يعني هذا اللقاء الشخصي ضياع وقت ثمين، أو إهمال الأمور الخاصة، أو تأجيل رحلة أو التنازل عن أشياء معينة نملكها كحقوق. السامري الطيب القلب في المثل، تخلى عن وسيلة نقله لحمل الجريح. وأعطاه أغلى ما لديه من زيت وخمر، ودفع لصاحب النزل، ووعد عند عودته بمواصلة إبداء الاهتمام بحالة الرجل.

٢. لا تأتي المحبة من وميض تعاطف مفاجئ مع الشخص البائس، قد يكون أوحى به الخوف السري من أن نجد أنفسنا في يوم من الأيام في نفس الموقف؛ أو الامتنان اللاواعي بأننا لسنا في مثل هذا الموقف حتى الآن. إنها عمل عطاء غير أناني وكامل، على مثال المسيح الذي أظهر على الصليب ما هي المحبة المطلقة. نحن نحب لأن "هو أحبنا أولاً" (١ يوحنا ١٩:٤) ، بحسب عبارة تلميذ المحبة.

٣. لكن هناك سمة أخرى للمحبة تنبثق من موقف السامري. المحبة لا تعرف روابطاً ولا حدوداً. ربما هذا بالتحديد ما كان يدور في ذهن الرب في سرد هذا المثل، والذي نشأ عن سؤال معلم الشريعة اليهودي: "مَن هو قريبي؟" سؤاله أتى من قلب فوضى المفاهيم المختلفة حول ما يتعلّق بمعنى وحدود مصطلح "القريب" في عصره. مَن كان موضوع المحبة المناسب وإلى أي مدى يجب أن يمتد؟ بإعطاء هذا المثل، قلب المسيح الأمور بإظهاره مَن هو موضوع المحبة. كل شخص هو موضوع المحبة وتخوم "القريب" لا حدود لها، ولا وجود لحواجز اجتماعية أو دينية أو عرقية أو من أي نوع آخر. إذا كنت تحب فقط أصدقاءك وإخوتك في الدين وأهلَكَ وأقاربَك، فأنت تتصرف بطريقة غير إنسانية. الأشخاص الذين لا يعترفون بهذه العوائق يتصرفون بطريقة إلهية، وفقًا لنموذج إله المحبة.

† حول إنجيل الأحد الثامن من لوقا – مثل السامري الشفوق

* أستاذ فخري في تفسير العهد الجديد، جامعة تسالونيكي اليونان